# التكامل بين فلسفة التفسير القرآني والدراسات البيانية

## ـ آية ﴿ اللَّـهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أنموذجا ـ

د. سعاد بولشفار
جامعة عمار ثليجي - الأغواط

| تاريخ الارسال: | تاريخ القبول: | تاريخ النشر: |
|---|---|---|
| 2019/07/20 | 2020/03/23 | 2020/04/20 |

**الملخص:**

ربما يتبادر إلى الذهن أن عملية التفسير دائما تجنح إلى البساطة في تفسير القرآن الكريم، ولكن الحقيقة العلمية أن بعض التفاسير وخاصة لبعض الآي تتميز بالعمق في استجلاء واستنباط المعاني التي لا تبدو مباشرة من القراءة الأولى أو الحرفية إن صح التعبير. وهذا ما لاحظته, أثناء تناولي بالدرس البياني آية { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }؛ إذ بدت النصوص التفسيرية في قمة التأمل البشري. علاوة على هذا يمكن أن تكون علاقة تكاملية بين التفسير القرآني والدراسات البيانية للقرآن الكريم كنوع من القراءة العميقة أو نوع من التفاسير بالرأي على اعتبار أن لكل خصائصه وأهدافه.

**الكلمات المفتاحية:** فلسفة التفسير - الدراسات البيانية - التشبيه - التكامل - المثل.

***Abstract:***

**Studies The process of the verset «God is the light of the heavens and the earth» as a model. It May come to mind that interpretation always tends to be simple in the interpretation of the Holy Quran, but the scientific fact that some interpretations, especially some Quranic verses are characterized by deep in the clarification and the development of meanings which appear directly from the first reading, literal reading, In addition to this, it is possible to confirm through this treatment that there is an integral relationship between the Quranic interpretation and the graphic studies of the Holy Qur'an as a kind of interpretation and as a kind of deep reading as That you Including its characteristics and objectives.**

**مدخل مفاهيمي**

يحاول هذا المدخل أن يقدم تعاريف لآليات لا بد من الاستعانة بها في إطار التكامل بين فلسفة التفسير القرآني والدرس البياني، ومدى علاقتهما الوطيدة بعلوم اللغة العربية، وقبل خوض المعالجة من الجانب النظري ثم الجانب التطبيقي بدراسة آية من آيات الذكر الحكيم، يستهل هذا البحث بتقديم تعريف للقرآن الكريم، فمن أشهرها هو «كلام الله المعجز المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة الأمين جبريل عليه السلام. المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختتم بسورة الناس»[1]. من كتاب "الواضح في علوم القرآن " «القرآن هو اللفظ العربي المعجز، الموحى به إلى محمد صلى الله بواسطة جبريل عليه السلام، وهو المنقول بالتواتر، المكتوب في المصحف، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس »[2]. وفي كتاب "مختصر علوم القرآن للرديني" هو «وحي الله المنزل على النبي مجمد عليه الصلاة والسلام لفظا ومعنى وأسلوبا، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر »[3]. أما في كتاب النبأ العظيم/ عبد الله دراز فقد جاء «القرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته »[4]. ولم يتوقف عند التعريف فقط بل زاد شرحا لأركانه فقال: «فالكلام جنس شامل لكل كلام، وإضافته إلى الله تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة... وتقيُد المنزّل بكونه على محمد لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، والصحف المنزلة على إبراهيم... و قيد المتعبد بتلاوته أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك كالأحاديث القدسية. [5]

ومعنى هذا التعريف أن القرآن منسوب إلى الله عزوجل لا لأحد من الإنس والجن، وعلى اعتبار أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي أنزل عليه بواسطة الأمين جبريل عليه السلام في مدة عشرين سنة أو أكثر كما ذكر العلماء.

وتناقله جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم أبدا على الكذب حتى يصل إلى المنقول عنه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. الذي أمر بالتعبد به أي بقراءته في الصلاة وبتلاوته آناء الليل وأطراف النهار. ولعله لا يمكن إغفال أهم لفظ في التعريف وهو المعجز من أعجز بمعنى التحدي والسبق والفوت في نظمه وأسرار أحكامه وإحكامه.

ومن المصطلحات المتداولة لدى الباحثين في الدراسات القرآنية مصطلح الدراسات البيانية، الذي يوحي بطرح جملة من التساؤلات منها: هل تنحصر الدراسات البيانية في علمي البيان والمعاني على سبيل المثال؟ أم أن لعلوم الأدب على تحفظ دور آخر في هذه الدراسات لإبراز الجمال الفني في النص القرآني، أو الخطاب القرآني على وجه الخصوص؟ وهل يمكن أن نصل إلى شيء من خلال استثمار كل ما يتعلق بالدراسات اللغوية والأدبية في النص القرآني في كل ما يتعلق بها من قريب أو بعيد كالتفسير الذي يرجى منه كشف مراد الله؟ ثم هل توجد علاقة تكاملية بين فلسفة التفسير وبين الدراسات البيانية على اعتبار أن الدراسات البيانية تعتمد على التفسير وأنها أيضا تشكل مسارا آخر من التفاسير بالرأي الذي يعتمد التتبع والتأمل والاستقراء والوصف والتحليل والمقارنة والتوكيد والتقرير...

بداية ليس أجمل من أن يتولى التفسير مفسرون لهم بُعد النظر التحليلي، على أساس أنه لا يمكن بلوغ ثمرات الآي القرآنية إلا بتفسيرها أو بتأويلها والوقوف على معانيها الجليلة على اعتبار أن التفسير اصطلاحا: هو «كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به». [6]

و لعلم التفسير تاريخ جليل ببداياته مذ ما نزل القرآن الكريم وتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فاهتموا بأوامره ونواهيه في تكوين الأفراد والمجتمعات ثم الدولة الإسلامية، التي تلقت القرآن الكريم بالاهتمام والخدمة، فانبرى المفسرون والفقهاء والأصوليون واللغويون ففسروه وفق نوعين هامين هما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي أو الاجتهاد الذي يسمح لكل الراغبين المجتهدين ممن يتوفر فيهم العلم فهم كتاب الله عزوجل وتحصيل ثمرات التأمل الهادفة والهادية كالذي وقفت عليه في تفسير آية ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ كما تناولها بعض المفسرين كبعض التابعين وكالطبري، وابن كثير- الذي يعد تفسيره من أروع ما قرأت - الذي أوحى لي بموضوع هذه الأطروحة. والذي لا يختلف فيه اثنان أن كتب التفسير وقفت في مسيرتها الكشفية عن معاني القرآن مستثمرة الدرس البلاغي التراثي، بمصطلحاته المتداولة، لتزداد الحجة القرآنية بألفاظها وعباراتها. مثال ما قدمه "الزمخشري" في "الكشاف" من تأملات بلاغية هامة.

أما الدراسات البيانية للقرآن الكريم هي حسب اجتهادي دراسات لغوية وبلاغية وأدبية تهتم بكل ما يتعلق بالقرآن الكريم من جهة الأداة واللفظ والجملة والمعنى والأساليب والتصوير والتعبير والإعجاز. في إطار موضوعاته المتنوعة والمختلفة، أو في إطار الموضوع الواحد. فـ «الأديبَ يلْفَت انتباهُه بلاغةَ القرآن وجمال الترابط بين الآيات والسور شكلا ومضمونا. »[7] وهذا بحسب المنهج المتبع، ونتيجة لتطور أداة الفهم ونضجها من مرحلة إلى أخرى، من مرحلة الدراسة الجزئية (الدرس التراثي) إلى مرحلة إدراك الخصائص العامة (نظرية التصوير) إلى مرحلة الدرس اللغوي المعاصر بجوانبه المتعددة لفظا وأسلوبا وعبارة، نحوا وصرفا وبلاغة ومن ثمّ إعجازا وهو عود على بدء وتتمة للدرس التراثي.

وتهتم الدراسات البيانية للقرآن الكريم بكل مسائل البلاغة [من قصر، وإيجاز وتقديم، وتأخير، واستعارة، وتشبيه، وكناية] التي تتجمع في النظم القرآني المعجز، وتشمل كل بحث بلاغي يستقصى في آيات الذكر الحكيم، فيبرز صاحبه باستقصائه ما يتجلى له من دقائق وخصائص ومزايا بلاغية... وهذه البحوث لا تنتهي، ولذا يظل القرآن الكريم معجزا إلى قيام الساعة، تتكشف للناس جوانب من جوانب إعجازه بتلك البحوث. [8] وعليه «فلا شك أن الذي ينظر في القرآن الكريم ويطالع آياته وسوره ويتفكر في الموضوعات التي تناولت تلك الآيات والسور يلحظ اشتمالها على موضوعات متعددة، لا تعدو إلا أن تكون بيانا لأصول الاعتقاد، والأحكام الشرعية، وذكر أحوال الأمم السابقين... و ذكر الآخرة في أسلوب بياني تعجز القدرة البشرية عن درك حقائقه كلها، والإحاطة بمفرداته»[9].

## أفانين البلاغة في القرآن الكريم

يجزم الدارسون على أن «المتتبع لآيات القرآن الكريم من العارفين بأفانين البلاغة يجد فيه فنونها بأسرها، من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، إلى ضرب الأمثال، وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع والفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل»[10].

و قد اعتمد "الزمخشري" - على سبيل المثال - في بيان معاني القرآن الكريم على لغة العرب وأساليبهم وعلى علمين هامين هما علم المعاني وعلم البيان، وعن أهميتهما قال: «والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات

بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولايغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان؛ و تمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة»[11] وهذا ما يؤكد منهج الدراسات البيانية المتبع.

**مرحلة إدراك الخصائص العامة**

وهذه المرحلة التي تبناها "سيد قطب" أُطلق عليها مرحلة إدراك الخصائص العامة ويقصد بها المرحلة التي جاءت متأخرة، ولم تتم إلا في العصر الحديث، حيث بدأت الكتابة في الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن الكريم، باكتشاف القاعدة العامة والطريقة الموحدة في التعبير القرآني[12].

و يرى بعض الدارسين أن ما جاء به "سيد قطب" فريد من نوعه من جانب التفسير الأدبي منهم " الشيخ بكري أمين " الذي عدّ في "ظلال القرآن " أحدث تفسير صدر في العالم الإسلامي... و إلى جانب هذا التفسير كتابان صغيران أولهما يدعى " التصوير الفني في القرآن " وثانيهما" مشاهد القيامة في القرآن " وكل هذه المؤلفات تنبع من روح واحدة، وهي محاولة الوصول إلى فهم "الصورة الفنية " في القرآن. [13] وحتى ما قدمه "أمين الخولي" والدكتورة "عائشة عبد الرحمن "و "محمد المبارك " يختلف من حيث الطريقة إذ فسر "سيد قطب " «القرآن كله على طريقته، وفسروا هم سورا عدة منه»[14] وإذا ما عدنا إلى الحديث عن "عائشة عبد الرحمن" فهي تعد من الذين انتهجوا نهج الدراسات البيانية للقرآن في كتابها "التفسير البياني للقرآن الكريم" أو التفسير الأدبي وهو «التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك»[15] وهذا من أجل «استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية»[16].

و نحن الآن لسنا في صدد التفرقة بين هؤلاء جميعا، ما دام كل منهم قد ساهم في إثراء المكتبة القرآنية. من جانب الدراسات البيانية.

و يشارك " مصطفى مسلم" " الشيخ بكري أمين " الرأي بخصوص "سيد قطب" إذ رأى أن التصوير الفني قد ارتبط «باسم سيد قطب. وهو أول من أبرز الجوانب الجمالية الفنية في أسلوب القرآن»[17].

ويقصد بالقاعدة العامة: التصوير الفني الذي عدّه سيد قطب - رحمه الله عزّوجلّ - الأداة المفضلة في القرآن، والقائم على التعبير بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، والحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية[18]. وقيمة التصوير الفني تتجلى في «فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات... »[19].

**آفاق التصوير الفني لدى سيد قطب:**

- تصوير باللون.

- تصوير بالحركة.

- تصوير بالتخييل

- تصوير بالنغمة. [20]

بالإضافة إلى هذا قد تجتمع هذه الآفاق معا باشتراك «الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحسّ والخيال، والفكر والوجدان»[21].

**التكامل بين فلسفة التفسير والتمثيل البلاغي**

المقصود بفلسفة التفسير هو ذلك البعد التأملي للقرآن الكريم؛ فما يبدو منه في الظاهر ليس هو بعينه المقصود، ولكنْ المقصود أمر آخر بعيد يفهم من مجرى الكلام أو بالتحديد من بدايته. فـ «كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم... و للكل وصف ظاهر وباطن، وحدّ ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم»[22]. وقد أكد" الزركشي" على ضرورة الإحاطة باللغة العربية لفهم القرآن الكريم إذ لا يستقيم أمر «من ادّعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب؛ فظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لابد منها للفهم... لأن القرآن نزل بلغة العرب، فما كان الرجوع فيه إلى لغتهم، فلا بد من معرفتها أو معرفة أكثرها»[23] لأنها السبيل إلى «فهم باطن علم القرآن وظاهره»[24].

و من الآيات القرآنية التي تجلت فيها فلسفة المفسرين العميقة قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ وفيها تحدث القرآن عن أمور روحية محضة في قالب مادي محض حتى يرى المعنى الأول فقط، ولكن بالوقوف على الآية تتوضح معاني جليلة في إطار التشبيه وضرب المثل، والمراد بالمثل «القرآني تشبيه شيء بآخر، وهو يختلف عن المثل في الاستعمال الاصطلاحي - عند أهل اللغة والأمثال - الذي هو القول المشهور، والعبارة المرسلة، التي تحمل معنى وعبرة، وتشير إلى قصة وحادثة»[25] و«قال الراغب في مفرداته: والمثل: عبارة عن قول في شيْ يشبه قولا في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[26].

و تكمن أهمية المثل القرآني المضروب في عدّه من «أهم العلوم وأرقاها، ولا أدل على ذلك من أن جعل الله تدبرها آية للعلم والفهم والعقل، فربط الله سبحانه وتعالى فهمها وتعقلها بالعلم فقال تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾ العنكبوت»[27].

و لعله من التقديرات على اعتبار القراءة الأولى «أن المشبه قد يكون واحدا ويشبه بأمرين أو أكثر تثبيتا للفكرة في النفس»[28] وهذا ما تميزت به هذه الآية النورانية الفريدة من حيث التعبير والتصوير البلاغيين.

قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)** ﴾ [النور]. ومعنى قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ** ﴾- والمشكاة وهي موضع الفتيلة - مثل نور الله الذي في قلبه كمشكاة وقد شبه قلب المؤمن... في صفائه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد **الصافي المشرق المعتدل**، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.[29] والمقصود بالمصباح في قوله تعالى: ﴿ **فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ و هو النور والمقصود بالنور القرآن والإيمان الذي في صدر المؤمن، ومعنى ﴿ **الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾: أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية. وهو نظير قلب المؤمن، وهذا ما قاله أبيّ بن كعب وغير واحد. و﴿**الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ**﴾ «فكذلك هذا المؤمن، فقد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن، وقد ابتلى بها فيثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صدق، وإن

حكم عدل، وإن ابتلي صبر، وإن أعطى شكر. ﴿ **وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ**﴾ قال أبي بن كعب: نور على نور فهو يتقلب في **خمسة** من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنّة. ومثل هذا التفسير ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾. قال بشر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال بشر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال حدثني عن قول الله: يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ قال: يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم، أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيْ [30].

و هذه من المبهرات التي لا تدرك إلا بتوظيف درس التشبيه والتمثيل باعتباره آلية بلاغية مساعدة على استنباط الأبعاد الروحية القيمة. على اعتباره «عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، لغرض توضيح هذه الصفة لاشتهار الثاني، أو لإشهاره بها»[31]

وفي ("مختصر تفسير الطبري" الذي يعد من العلماء الذين اهتموا ببيان الأمثال القرآنية في تفاسيرهم[32]، فمعنى الآية هو الله «هادي من في السماوات والأرض، فهو بنوره يهتدون إلى الحق، (مثل نوره) قيل: مثل نور من آمن/ مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم. و قيل نور القرآن كمشكاة.. و هو مثل ضربه الله عزّ وجلّ لقلب محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل مثل ضربه للقرآن في قلوب أهل الإيمان، وجعل المصباح مثلا لما في قلوب المؤمنين من القرآن والآيات البينات، والزجاجة ضربها لصدر المؤمن ﴿ **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ فيه مثل لصدر المؤمن في خلوصه من الكفر بالزجاجة، وشبه الزجاجة في صفائها وحسنها بالكوكب الدري، وهو المضيء الحسن الصافي[33]. وعليه ففي هذا التقريب بُعد لا يمكن أن يدرك إلا بحاسة تأملية قوية، على اعتبار تمظهر الخطاب في شكل حسّي محض وهذا بتشكيل علاقة تقابلية ضمنية بين ﴿**كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ وصدر المؤمن (المعنى المنكشف) الذي يحمل القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. وفي قوله عزوجل: ﴿ **وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ و معنى «ذلك تكاد حجج الله تعالى من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر»[34]. ويضيف عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" معاني جليلة بتبيان وجه هذا المثل «الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك

المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله عزوجل، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره»[35]. والذي يؤكد من هذا التفسير السعدي أن التشبيه في هذه الآية «يصف ويقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة»[36]. وفيها يتعانق التفسير القرآني أو فلسفة التفسير القرآني بالتفسير البلاغي الذي يستنكه جماليات الصورة ولا يكاد يتبينها إلا في حدود بشرية؛ فـ«التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل»[37] ولأن الحقائق الأخرى لا يعلمها إلا الله عزوجل، من خلال هذا العرض يتأكد أن هذه الدراسة البيانية قامت على فرع من فروع اللغة العربية وهو البيان بالتركيز على التمثيل أو التشبيه الذي هو عقد علاقة بين شيئين أو أكثر والذي يهتم بالصورة المتشكلة في إطار التركيب الذي تتضام فيه الجمل بكلماتها وبأدواتها وبروابطها التي جعلت الآية متماسكة وتتعانق لتعبر عن معنى جليل صاف صفاء كوكب دُرّي. تجلى فيه «زيادة إفهام وتذكير، وتصوير للمعاني وتقريب الصورة إلى ذهن المخاطب: وتوضيح المعاني المجردة بتصويرها صورة معلومة في الذهن»[38] ومما تتميز به هذه الآية الجوهرة ذلك التلاحم بين الجمل المتتابعة، فبإعادة قراءتها يلاحظ ذلك التجاور القوي إذ لا يمكن الفصل بين جملة وأخرى بفاصل أبدا، وبهذا يتحقق الإعجاز الذي هو بمعنى التحدي وعدم الإدراك، فلا تكتمل قراءة جزء منها حتى تجد الآية الموالية بجانبها تزيدها بيانا إلى حدّ الغموض الذي لا يفقه إلا بالتأمل والدرس البلاغي ويرى انفتاح متتال عجيب متسق يتبع مجرى الكلام لا يعلم آخره إلا الله عزوجل. ثم الراسخون في العلم بحسب الطاقة البشرية، وهذا يؤدي إلى الطرح الجدي للعلاقة التكاملية بين الدراسات البيانية وفلسفة التفسير لهذه الآية النورانية التي اعتمدت في نظمها على كل ما يمت إلى الضياء والجمال من ألفاظ وجمل تصويرية في إطار التشبيه الذي ينفتح على بعضه البعض بمتتالية لا نظير لها. كان لحسن التخلص دور كبير فيها. وكان للقصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى أثر جم[39]. مع اعتمادها على «تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل»[40].

و لمحمد الصابوني اهتمام واضح بالبلاغة القرآنية؛ أي بمجازات القرآن وتشبيهاته واستعاراته وأساليبه، إذ سجل درسه ونظره البلاغي معتمدا شواهد مستخرجة من السورة المفسرة وهذا في

تفسيره، ومن الجوانب البلاغية التي وقف عليها «إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى منوّر لكل شيء بحيث كأنه عين نوره، قال الشريف الرضي: وفي الآية استعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة»[41].

**خلاصة القول:**

القرآن الكريم معجز حتى تقوم الساعة. وقراءاته عبر العصور والأزمان مختلفة ومتنوعة ومتكاملة مثالها قراءة التفسير والقراءة البيانية العربية - موضوع ومنهج الدراسة -، وكل قراءة لها أهدافها وإشكالاتها وآلياتها. وتعد فلسفة التفسير خير ما جادت به كتب المفسرين؛ لما تتميز به من تأمل عميق، وإشارات خفية ماثلة في أساليب متنوعة كأسلوب التشبيه والتمثيل - مثال هذه الدراسة البيانية التي يشبه فيها المعنوي (قلب المؤمن) بالحسي (زجاجة صافية مضيئة)، لها من أثر التفسير على الباحثين والدارسين ما لها من قوة التعبير والتصوير والحجج الدامغة.

**قائمة المصادر والمراجع:**


- إسماعيل بن عمر بن كثير (أبو الفداء)، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم بيروت- لبنان، مكتبة دار الزيان: الجزائر، ط1، 1423هـ- 2002م، مج 3.
- ألتونجي محمد، معجم علوم العربية- تخصص، شمولية، أعلام - دار الجيل: بيروت، ط1، 2003-1424هـ.
- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة: بيروت - لبنان، د ت.
- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق: بيروت، ط4، 1400هـ- 1980م.
- بسيوني عبد الفتاح فيود، روافد من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، مؤسسة المختار: القاهرة - مصر، ط1، 1431هـ-2010م.
- ديب البغا مصطفى، ديب مستو محي الدين، الواضح في علوم القرآن، دار العلوم الإنسانية، سوريا: دمشق، ط، 1418هـ- 1998م.
- دراز محمد عبد الله، النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن - دار القلم: الكويت، ط 4، 1397هـ-1977م.

- الرديني محمد علي عبد الكريم، مختصر علوم القرآن، دار الشهاب: باتنة - الجزائر، دط، د ت.
- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، المكتبة التوفيقية: القاهرة، 2008 م، ج 2.
- السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة: بيروت، طبعة أولى جديدة محققة، 1423هـ- 2002م.
- شعبان مروان وحيد، مقدمة في إعجاز القرآن الكريم، دار الإعجاز: طرابلس - لبنان، ط2، 1432هـ- 2011م.
- الصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان، ط1، 1416هـ- 1995م، ج 2.
- محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، د ت ج 1.
- محمد منصور عبد القادر، الإعجاز العلمي في القرآن، دار الرضوان: حلب - سوريا، د ط، 2003.
- محمد بن صمادح التجبي (أبو يحي )، مختصر تفسير الطبري، تح: مروان نور الدين سوار، دار الفجر الإسلامي: بيروت.
- مسلم مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن، دار القلم: دمشق، ط 4، 1429هـ- 2008م.
- معجم تفاسير القرآن الكريم، تأليف مجموعة من الباحثين، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية: بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م، ج1.
- ابن القيم الجوزية، الأمثال في القرآن الكريم، تح: فواز أحمد زمرلي، دار ابن حزم: بيروت - لبنان، ط1، 1434هـ - 2013م.
- قطب سيد، التصوير الفني، دار الشروق: القاهرة، 1408هـ- 1988م.
- القطان مناع، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع: الرياض، ط2، 1417هـ- 1996م.


## الهوامش:

1 مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع: الرياض، ط2، 1417هـ- 1996، ص 15- 16.

2 الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو، دار العلوم الإنسانية، سوريا: دمشق، ط2، 1418- 1998، ص 15.

3 مختصر علوم القرآن، محمد علي عبد الكريم الرديني، دار الشهاب: باتنة- الجزائر، دط، د ت، ص 12

4 النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن-، محمد عبد الله دراز، دار القلم: الكويت، ط 4، 1397هـ- 1977م، ص 14- 15.

5 المرجع نفسه، ص 15.

6 البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة: بيروت– لبنان، د ت، ج2، ص 147.

7 الإعجاز العلمي في القرآن، عبد القادر محمد منصور، دار الرضوان: حلب– سوريا، د ط، 2003، ص 5.

8 روافد من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار: القاهرة– مصر، ط1، 1431هـ– 2010م، ص 14 بتصرف.

9 مقدمة في إعجاز القرآن الكريم، مروان وحيد شعبان، دار الإعجاز: طرابلس– لبنان، ط2، 1432هـ– 2011م، ص 7.

10 مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار القلم: دمشق، ط 4، 1429هـ– 2008م، ص 120

11 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، د ت ج 1، مقدمة المؤلف (ص ن).

12 مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص. 108 بتصرف.

13 التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق: بيروت، ط4، 1400هـ– 1980، بتصرف ص 137).

14 المرجع نفسه، ص 138.

15 معجم تفاسير القرآن الكريم، تأليف مجموعة من الباحثين، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية: بيروت– لبنان، ط 1، 1424هـ– 2003م، ج1، ص 214.

16 المرجع نفسه، ص 215.

17 مباحث في إعجاز القرآن، ص 106.

18 التصوير الفني، سيد قطب، دار الشروق: القاهرة، 1408هـ– 1988م، ص 36 بتصرف

19 المصدر نفسه، ص 36

20 المصدر نفسه، ص 37 بتصرف

21 المصدر نفسه، ص 37

22 البرهان ج 2 ص 153– 154

23 المصدر نفسه، ص 155

24 المصدر نفسه، ص 155.

25 الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم الجوزية، تح: فواز أحمد زمرلي، دار ابن حزم: بيروت– لبنان، ط 1، 1434هـ– 2013م، ص 43.

26 المصدر نفسه، ص 43

27 الأمثال، ابن القيم، ص 46

28 التعبير الفني، ص 195

29 تفسير ابن كثير، ج 3، ص 2046 (تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط 1، دار ابن حزم بيروت– لبنان، مكتبة دار الزيان: الجزائر، 1423هـ– 2002، مج 3، ص 2046).

30 تفسير ابن كثير، ص 2047- 2048 بتصرف

31 معجم علوم العربية- تخصص، شمولية، أعلام-، محمد ألتونجي، دار الجيل: بيروت، ط 1، 2003- 1424 هـ، ص 140

الأمثال في القرآن الكريم، ص 47 بتصرف 32

33 مختصر تفسير الطبري، أبو يحي محمد بن صمادح التجبي، تح: مروان نور الدين سوار، دار الفجر الإسلامي: بيروت،

34 المصدرنفسه ص 354 بتصرف

35 تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة: بيروت، طبعة أولى جديدة محققة، 1423هـ- 2002م، ص 569.

36 التعبير الفني، ص 195

37 التصوير الفني، ص 9

38 الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم، ص 48

39 مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، المكتبة التوفيقية: القاهرة، 2008م، ج 2 ص 317. بتصرف

40 الأمثال، ابن القيم الجوزية، ص 50

41 صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي: بيروت- لبنان، ط 1، 1995- 1416هـ، ج 2، ص 235).